Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 44:2 (2009)

القيم الحضارية في رسالة خير البشرية ﷺ: (٢) القيم الاجتماعية

محمد بن عبدالله بن صالح السحيم

المبحث الثاني: القيم الاجتماعية:

تتناول القيم في هذا المبحث موضوعاً طالما شغل الدارسين والمفكرين وعلماء الاجتماع ألا وهو موضوع الاجتماع، فالقيم التي ينتظمها هذا المبحث تعتبر أسس هذا العلم وقواعده، كما تؤكد على أن هذا الدين الخاتم قد أحاط بكل ما يحتاج إليه الأحياء وتحتاج إليه الحياة، وقد حاولت أن أتناول أبرز القيم المتعلقة في هذا الموضوع وإن كنت لا أستطيع الإحاطة بما يتعلق به، كما ذكرت ذلك في المقدمة، ويدخل تحت هذا المبحث سبعة مطالب هي:

المطلب الأول: الوسطية:

التعريف اللغوي: جاء في **ترتيب القاموس**: "الوسط: من كل شيء أعدله، وقال ابن منظور: وسط الشيء ما بين طرفيه، ووسطٌ أي خيار، ووسط الشيء وأوسطه أعدله، ورجل وسط ووسيط حسن[١]. وقال في **المفردات**: وسط الشيء ما له طرفان متساويا القدر[٢].

إذاً الوسط هو العدل والخيار، وهو التوسط بين الطرفين فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط. وبما أنه بهذه المثابة التي لا تستقيم أمور الأمم والأفراد إلا عليها؛ فقد جاء هذا الدين الحنيف وسطا عدلاً، وأمر بالتوسط وحثّ عليه، وبين أن الهلاك كل الهلاك في الابتعاد عن التوسط سواء كان هذا

١- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، مادة وسط، ٧/ ٤٢٧ ـ ٤٣٠. والطاهر أحمد الزواوي، **ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**، دار عالم الكتب، الرياض، ط٤، ١٤١٧هـ، المادة نفسها.

٢- الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ٥٢٢.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الابتعاد إلى ناحية التشدد أم إلى ناحية التفريط.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بأنها وسط فقال عز من قائل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٣). وقال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "إن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين؛ فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها"(٤).

وهذا الدين الذي أمر بالتوسط جعله الله طريقاً مستقيماً لا عوج فيه يوصل إلى مراد الله من خلقه، ويوصل الخلق إلى أسمى غاياتهم، قال جل ثناؤه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٥). فهو يوصلهم إلى غاياتهم الدنيوية، ويحقق لهم السلامة الأخروية قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(٦). فلهم الرحمة في الدنيا والآخرة كما أن لهم الرحمة والجنة في الآخرة.

فمن الوسطية التي أمر بها هذا الدين ألا يزيد العبد في التعبد على ما شرعه الله له، لئلا يفضي إلى الإحداث في الدين، ولئلا يكلف المرء نفسه فوق طاقته، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن حميد بن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها! فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم

٣- سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

٤- محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق محمد أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ٢/ ٦.

٥- سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

٦- سورة النساء، الآية: ١٧٥.

وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[٧].

ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد حبلاً ممدوداً بين ساريتين فقال: "ما هذا الحبل"؟ فقيل يا رسول الله! لحمنة بنت جحش تصلي، فإذا أعيت تعلقت به. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتصل ما أطاقت فإذا أعيت فلتجلس"[٨].

ومن الوسطية في هذا الدين أن يجمع المرء بين الدين والدنيا، جمعاً متوازناً يعطي لكل ذي حق حقه، فلا يطغى جانب التعبد فيضيع العبد نفسه ويعيش عالة على الآخرين، ويضيع حقوق من تجب عليه رعايته كالزوجة والوالد والولد، ولا يطغى جانب الدنيا على الدين فينشأ المرء عبداً للمال لا يعرف ربه ولا يستغفر ذنبه، قال تعالى مرشداً إلى هذا التوازن بين الناحيتين: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٩]. قال ابن جرير رحمه الله: "يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل قوم قارون له لا تبغ يا قارون على قومك بكثرة مالك والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا". ثم أورد قول الحسن رحمه الله في معنى قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾" قال الحسن: ما أحل الله لك منها فإن لك فيه غنى وكفاية"[١٠]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ

٧- محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧هـ، ح ٤٧٧٦، ٥/ ١٩٤٩، ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، ح ١٤٠١، ٢/ ١٠٢٠.

٨- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مؤسسة قرطبة، مصر، ٣ / ٢٥٦، ومحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ ٤/ ٦٨، ومحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي، **صحيح ابن حبان**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، ط ٢، بيروت، ١٤١٤هـ ٦/ ٢٤٠، ومحمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، **سنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١/ ٤٣٦، وأحمد بن الحسين بن علي البيهقي، **سنن البيهقي**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ٣/ ١٩.

٩- سورة القصص، الآية: ٧٧.

١٠- **جامع البيان**، ٢٠/ ١١١-١١٢.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[11]. فهؤلاء لا تشغلهم التجارة عن الصلاة ولا تمنعهم من إيتاء الزكاة. وقال قتادة: "كان القوم يتبايعون ويتّجرون ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله"[12] وقال ابن كثير رحمه الله: "لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق"[13].

وكما أمر الله بالتوازن فقد أذن بالتمتع بمتاع الحياة الدنيا مما أحله الله من الملابس الجميلة والمآكل الطيبة، بل أمر الله المؤمنين إذا جاؤوا إلى المساجد أن يلبسوا أحسن ثيابهم قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[14].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتفقد أصحابه رضي الله عنهم فإذا رأى على بعضهم مخالفة لهذا الاعتدال وجّه إلى ما هو خير، فعن أبي الأحوص عن أبيه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو قشِف الهيئة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل لك مال؟ قال نعم. قال من أي المال؟ قال من كل المال من الخيل والإبل والرقيق قال فإذا آتاك الله مالاً فلير عليك"[15]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرشد أصحابه إلى أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة؛ إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[16]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة.

١١- سورة النور، الآيات: ٣٦-٣٨.

١٢- **صحيح البخاري**، ٢ / ٧٢٦.

١٣- إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، ١٤٠١هـ، ٣ / ٢٩٦.

١٤- سورة الأعراف، الآيتان: ٣١-٣٢.

١٥- **المستدرك على الصحيحين**، ١/ ٧٦، و**صحيح ابن حبان**، ١١/ ٢٣٤.

١٦- **المسند**، ٢/ ٣١١، محمد بن عيسى الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت، ٥/ ١٢٣، وقال الترمذي: حديث حسن، **المستدرك**، ٤/ ١٥٠، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس"[١٧].

فالإسلام جاء بالتوسط بين متطلبات الجسد ومقوّمات الروح، فليس ديانة روحانية فقط كالديانات الشرقية الوثنية الزرادشتية أو الكنفوشيسية، وليس سبيلاً للإنتاج المادي والإسراف في طلب نعيم الجسد فقط كالمنهج الرأسمالي؛ بل منهج وسط ـ كما سبق بيانه ـ يراعي كل متطلبات الكائن البشري، ويرضي الرب سبحانه وتعالى عن عباده، ويحقق السعادة في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني: العناية بالمرأة:

للمرأة شأن عظيم في الإسلام سواء كانت أُمّاً أو زوجا أو بنتاً أو أختاً أو من عامة الناس، فالله قد قرن حق الوالدين بحقه فقال عز من قائل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[١٨]. وبيّن الحق سبحانه حقوق وواجبات كل من الزوجين تجاه الآخر فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٩]. وأخبر الكريم الرحمن أن الرجل والمرأة يتساويان في الدنيا والآخرة في ثواب العمل والتمتع بآثاره الطيبة وعاقبته الحميدة قال جل ثناؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢٠]. وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم الرجال بالنساء فقال في حجة الوداع في خطبة يوم عرفة في ذلك المقام المشهود والجمع العظيم: "فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله"[٢١]. ولم يهمل الشارع توجيه الأزواج إلى ما فيه مراعاة مشاعر النساء والتلطف إليهن فقال صلى الله عليه وسلم: "وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك"[٢٢].

ولما كانت العرب في جاهليتهم يتضايقون من البنات ـ وهذا خلق كل جاهلية ـ بشّر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الآباء الذين يرزقون البنات بالخير العظيم عند الله سبحانه وتعالى، فقال: "من

١٧- **صحيح مسلم**، ح ٩١، ١/ ٩٣.

١٨- سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

١٩- سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

٢٠- سورة النحل، الآية: ٩٧.

٢١- **صحيح مسلم**، ح ١٢١٨، ٢/ ٨٨٩.

٢٢- متفق عليه، **صحيح البخاري**، ح ٢٥٩١، ٣/ ١٠٠٦، و**صحيح مسلم**، ح ١٦٢٨، ٣/ ١٢٥١.

ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن كن له حجاباً من النار"[٢٣]. وللرسول صلى الله عليه وسلم شأن آخر مع المرأة؛ لذا لم تكتف النساء بما تسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وفي خطابه لعامة الناس بل طلبن منه أن يخصص لهن يوماً يأتيهن ويحدثهن ويخصهن بما يناسبهن فوافق صلى الله عليه وسلم ففي الحديث الصحيح أن النساء قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار فقالت امرأة واثنين فقال واثنين"[٢٤].

وفي عنايته صلى الله عليه وسلم ـ وهو الرسول المكلف بأعباء الرسالة وبشؤون الدولة ـ بالمرأة التي كانت تقم المسجد وهي امرأة سوداء من عامة الناس قد لا يُتفطن لمكانها ولا تتبين مكانتها ما يبين حرصه صلى الله عليه وسلم على إعطاء كل ذي حق حقه وعلى إنصافه للمرأة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "إن امرأة سوداء كانت تقم المسجد أو شاباً ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها أو عنه؟ فقالوا مات. قال: أفلا كنتم آذنتموني، قال فكأنهم صغّروا أمرها أو أمره، فقال: دلوني على قبره، فدلوه فصلى عليها"[٢٥]. وفي إخباره صلى الله عليه وسلم عن ثواب ومكانة المرأة التي حبست نفسها على أطفالها في الدنيا ما يدل دلالة عظيمة على تقدير الإسلام للمرأة التي ضحت بنفسها من أجل أولادها الذين هم لبنة من لبنات المجتمع فقال صلى الله عليه وسلم: "أنا وامرأة ـ سفعاء الخدين ـ كهاتين يوم القيامة وأومأ يزيد بالوسطى والسبابة، امرأة أمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا"[٢٦]. قال ابن حجر رحمه الله: "ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حالة دخول الجنة؛ لما أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة رفعه 'أنا أول من يفتح باب الجنة فإذا امرأة تبادرني، فأقول من أنت؟ فتقول أنا امرأة تأيمت على أيتام لي!' ورواته لا بأس بهم، وقوله: تبادرني أي لتدخل معي، أو تدخل في أثري، ويحتمل أن يكون المراد مجموع الأمرين: سرعة الدخول وعلوّ المنزلة"[٢٧].

٢٣- **سنن الترمذي**، ٤/ ٣١٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، و**سنن ابن ماجه**، ٢/ ١٢١٠.

٢٤- **صحيح البخاري**، ح ١٠١، ١/ ٥٠، واللفظ له، و**صحيح مسلم**، ح ٢٦٣٣، ٤/ ٢٠٢٨.

٢٥- المرجع السابق، ح ٩٥٦، ٢/ ٦٥٩، واللفظ له، و**صحيح البخاري**، ح ٤٤٨، ١/ ١٧٦.

٢٦- **مسند الإمام أحمد**، ٦/ ٢٩، وسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ٤/ ٣٣٨.

٢٧- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٠/ ٤٣٦، وانظر: محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، **تحفة الأحوذي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٦/ ٣٩.

ففي هذا الدين ـ كما يرى كل منصف ـ أن للمرأة مكانة سامية ودرجة عالية لم تبلغها المرأة في أي ديانة سابقة أو حضارة لاحقة، فقد ساوى بينها وبين الرجل في الدنيا والآخرة في ثواب العمل والتمتع بآثاره الطيبة وعاقبته الحميدة، وحثّ على الوصية بها والعناية بها أماً وزوجة، وبيّن أجرها في كل ما يتعلق بشؤونها من احتسابها البقاء من دون زوج رعاية لأطفالها... إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه.

المطلب الثالث: الحب:

هذا الخلق العظيم والبلسم الشافي لأمراض القلوب، الذي يؤلف بين النفوس ويجمع بين الأرواح، ويصبغ المجتمع صبغة عاطفية يتسامى فيه أفراده عن الضغائن والأحقاد، ويتعاملون فيما بينهم معاملة الأخ لأخيه، بل معاملة المرء مع نفسه، حتى تكون الحياة سعادة غامرة وجنة عامرة. وهذا الحب في هذا الدين أنواع متعددة، حب يشمل الخالق والمخلوق، حب من الخالق لعباده المؤمنين، وحب من المرء لربّه، حب يزرع أسباب الود حتى يشمل الرسول صلى الله عليه وسلم والأب والأم والزوجة والولد وسائر المؤمنين، بل يمتد ذلك فيشعر المرء برباط الحب يربطه بالأرض التي نشأ عليها، والمعالم التي يتردد في جنباتها، وفي نصوص الوحي ما يبين لك طرفاً من هذا المعنى السامي، ومن ذلك:

أولا: محبة الله جل جلاله لعباده:

الله سبحانه وتعالى يحب عباده المؤمنين، يحبهم وهو غني عنهم إنما محبة إنعام وإفضال منه لهم، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾(٢٨). بل يرضى عنهم وعن أفعالهم لأنها جاءت موافقة لما أراده منهم قال جل ثناؤه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢٩).

ثانيا: محبة المرء لربه:

المسلم يحب ربه لأنه أهل للحب، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾(٣٠). فهو يحبه لما اتصف به سبحانه من نعوت الجمال والجلال والكمال، ويحبه لما يغذوه به من النعم ويمده به من المنن، فلله على العبد نعم لا تحصى قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا

٢٨- سورة المائدة، الآية: ٥٤.

٢٩- سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

٣٠- سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[٣١]. وأعظم الخلق محبة لله هم الأنبياء والمرسلون قال ابن القيم: "فأعرفُ خلقه به وأحبهم له يقول: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ولو شهد ـ أي المرء ـ بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة إلا من آثار صفات كماله، فإنهم لم يروه في هذه الدار، وإنما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه فاستدلوا بما علموه على ما غاب، فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه وتعالى لكان لهم في حبه شأن آخر، وإنما تفاوتت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم بالله أشدهم حباً له، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حباً له، والخليلان من بينهم أعظمهم حباً، وأعرف الأمة أشدهم له حباً، إلى أن قال: وهل خلق الله سبحانه وتعالى خلقه إلا لعبادته التي هي غاية محبته والذل له وهل هيئ الإنسان إلا لها كما قيل:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وهل في الوجود محبة حق غير باطلة إلا محبته سبحانه، فإن كل محبة متعلقة بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلقها، وأما محبته سبحانه فهو الحق الذي لا يزول ولا يبطل كما لا يزول متعلقها ولا يفنى، فسبحان الله كيف ينكر المحبة الحق التي لا محبة أحق منها ويعترف بوجود المحبة الباطلة المتلاشية، وهل تعلقت المحبة بوجود محدث إلا لكمال في وجوده بالنسبة إلى غيره؟ وهل ذلك الكمال إلا من آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء؟ وهل الكمال كله إلا له؟ فكل من أحب شيئاً لكمالٍ ما يدعوه إلى محبته فهو دليل وعبرة على محبة الله، وأنه أولى بكمال الحب من كل شيء، ولكن إذا كانت النفوس صغاراً كانت محبوباتها على قدرها! وأما النفوس الكبار الشريفة فإنها تبذل حبها لأجلّ الأشياء وأشرفها، والمقصود أن العبد اذا اعتبر كل كمال في الوجود وجده من آثار كماله سبحانه فهو دال على كمال مبدعه، كما أن كل علم في الوجود فمن آثار علمه، وكل قدرة فمن آثار قدرته، ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العلوي والسفلي إلى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم إلى عمله سبحانه وقدرته وقوته وحياته، فإذا لا نسبة أصلاً بين كمالات العالم وكمال الله سبحانه، فيجب ألاَّ يكون بين محبته ومحبه غيره من الموجودات له بل يكون حب العبد له أعظم من حبه لكل شيء بما لا نسبة بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فالمؤمنون أشد حباً لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب، ... فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل

٣١- سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

عليه في مصالحها وتلجأ إليه وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا الله وحده، ولهذا كانت لا إله إلا الله أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته، فهذه المسألة قطب رحى الدين الذي عليه مداره، وإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"(٣٢).

فأهل الإيمان يحبون الله كأعظم ما يكون الحب، ويعلمون أن محبته غاية كل حي، ويستمدون من محبتهم له ما يعينهم على تحمل المشاق، وبذل المهج والأموال، ومغادرة الأوطان، ويجدون أثر هذه المحبة في قلوبهم سعادة وبرداً ويقيناً حتى إن الفرد منهم ليكون في أضيق عيش وأسوء حال ومع ذلك يشعر بقربه من ربه ومحبته له ما ينسيه ما هو فيه من سوء الحال، ويستعذب أنسه بالله!

هذا ما يجده أهل الإيمان بالله، لكن ألا ترى أن غاية ما تدعو إليه النصرانية أن يتفانى المرء في محبة المسيح ابن مريم عليه السلام؛ لاعتقاده أنه ابن الله، وأنه بذل نفسه فداء للبشرية، وصلب من أجلها، رغم أن كتابه لا يسعفه في إثبات هذه الحقيقة؛ بل لو تفحصه لوجده متناقضاً في إثباتها. وقصارى جهد البوذي أن يتفانى في محبة بوذا، لما وجد في أساطيره من خرافات تدور حوله. ويعظم البراهمة معبودهم (براهما). ويقتفي الزرادشتيون أثر زرادشت اعتقاداً بالقداسة التي تنقلها كتب هذه الديانة حول هذه الشخصية... وهكذا كل أتباع نحلة وديانة يعظمون ويحبون بشراً مثلهم يعبدونه ويمنحونه الحب؛ رجاء أن ينفعهم أو يدفع عنهم الضر، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، والسؤال المهم في هذا الباب: هل حققت هذه الديانات لأربابها السعادة والأنس وبرد اليقين؟! لكن المسلم يحب الله سبحانه، وهو أهل للحب لذاته سبحانه وتعالى، ولأنه متصف بصفات الكمال والجلال والجمال، كما سبق بيانه. قال ابن القيم رحمه الله: "فإن إيثار المحبوب على غيره موجب المحبة ومقتضاها فإذا استقرت المحبة في القلب استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره، وهذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها ... فيكون عاملاً على مراد محبوبه منه، لا على مراده هو من محبوبه، فهذه هي المحبة الخالصة من درن العلل وشوائب النفس"(٣٣). فإذا محبة الله تحقق للمرء كل مراد النفس، بل هو يستشعر السعادة وهو يحقق مراد ربه منه!

ثالثا: محبة الرسول صلى الله عليه وسلم:

يحب المسلم الرسل والأنبياء جميعاً ولا يفرق بين أحد منهم، لأنهم رسل الله، ولأنهم قدموا

٣٢- محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، دار الوطن، الرياض، ص ٤٧١-٤٧٣.

٣٣- المرجع السابق ٤٤٤ .

أعظم هداية للبشر إذا أنقذوهم من الكفر إلى الإيمان، ولأنهم كانوا القدوة المثلى فيما يأمرون به وينهون عنه، ولأنهم حازوا من الفضائل والشمائل أرقاها وأزكاها، ولا شك أن أعظمهم في كل ذلك محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الذي قدم للبشرية الرسالة الخاتمة، وهو الذي فاق البشر بتحلّيه بكل الكمال الخلقي البشري حتى وصفه ربه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٣٤). قال ابن جرير رحمه الله: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه"(٣٥). ووصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان خلقه القرآن"(٣٦). فلذا يحبه أهل الإيمان امتثالاً لأمر ربهم بمحبته، ووفاءً لما قدم لهم من هداية وإرشاد، ومحبة للكمال الذي اتصف به؛ إذ النفوس معلقة بمحبة أهل الكمال، فكيف إذا كان الكامل هادياً ورسولاً ومبشراً ونذيراً، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"(٣٧). وهذا الحب هو علامة الإيمان بل هو علامة كماله وتذوق حلاوته قال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"(٣٨). وليست هذه المحبة مجرد ادّعاء حبٍ يردده المسلم صباحاً ومساءً كحال الذين يعظمون أئمتهم، وليست غلوا في محبته ورفعاً له فوق منزلته، فقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى أصحابه أن يعظموه أو يمنحوه شيئاً من الصفات والخصائص التي لا تليق إلا بالله، وكان يقول: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبدالله ورسوله"(٣٩). وإنما كانت محبتهم له صلى الله عليه وسلم اتباعاً لأمره، وتصديقاً لخبره، واجتناباً لنهيه، وعبادةً لله وفق ما بلغه عن ربه؛ امتثالا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٤٠).

٣٤- سورة القلم، الآية: ٤.

٣٥- **جامع البيان**، ٢٩/ ١٨.

٣٦- المرجع السابق ٢٩/ ١٨، و**تفسير القرآن العظيم**، ٤/ ٤٠٣.

٣٧- **صحيح مسلم**، (ح ٤٤)، ١/ ٦٧.

٣٨- **صحيح البخاري**، (ح ١٦)، ١/ ١٤.

٣٩- المرجع السابق، (ح ٣٢٦١)، ٣/ ١٢٧١.

٤٠- سورة آل عمران، الآيتان: ٣١-٣٢.

رابعاً: محبة المسلم لعامة المؤمنين:

الحب الذي يغشى قلب المؤمن من جراء محبة الله وتعظيمه، يلزم منه حبه لكل من وافقه في هذا الحب السامي والدين العظيم، فيحب الرسل والأنبياء لما سبق بيانه، ويحب سائر المؤمنين؛ لأنهم يشاركونه في هذا الدين ويعبدون الله وحده لا شريك له، ويحبهم لأن من جملة ما يتعلمه المسلم في هذا الدين الإلهي أنه يجب عليه أن يحب إخوانه كما يحب نفسه، بل يحب لهم كما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٤١). وأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يزرع الحب في القلوب ويوصل إلى الجنة: "فقال لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم"(٤٢). وحذرهم من ضد هذا الحب، وبين لهم الأسباب المفضية إلى ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال"(٤٣). كل ذلك من أجل أن يعيش المجتمع متماسكاً متراصاً كأنه جسد واحد كل فرد يفرح لفرح إخوانه، ويأسى لأحزانهم، قال صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(٤٤).

فالمسلم يحب الخير للبشرية أينما كانت فيرغب بل تكاد نفسه تذهب عليهم حسرات إن لم يؤمنوا بهذا الدين القويم؛ ولذا قال الله عزوجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾(٤٥). وما ذاك إلا رغبة في نجاتهم، ووقاية لهم من عذاب الله يوم القيامة، وأن يشاركوه في سعادة الدنيا والآخرة، فالمسلم ليس أنانياً يريد الخير لنفسه، كما أنه ليس عنصرياً فيترفع عن أبناء الشعوب والأقوام الأخرى، بل يتمنى أن يعم الخير كل الناس.

خامسا: حب الزوجة:

عبّر القرآن الكريم عن هذه العلاقة بين الزوج والزوجة تعبيراً تعجز اللغات عن الوفاء بمعناه،

٤١- المرجع السابق، (ح ١٣)، ١/ ١٤.

٤٢- **صحيح مسلم**، (ح ٥٣)، ١/ ٧٤.

٤٣- **صحيح البخاري**، (ح ٥٧٢٦)، ٥/ ٢٢٥٦.

٤٤- المرجع السابق، (ح٥٦٦٥)، ٥/ ٢٢٣٨، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٥٨٦)، ٤/ ١٩٩٩ واللفظ له.

٤٥- سورة فاطر، الآية: ٨.

فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٤٦). وجعل الله سبحانه وتعالى خلقه للزوجين بعضهما من جنس بعض من أعظم الأدلة الدالة على وحدانيته فقال جل ثناؤه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤٧). قال ابن كثير رحمه الله: "فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين"(٤٨). وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم الرجال بالنساء خيراً كما ذكرته عند الحديث عن مكانة المرأة في هذا الدين، ولما سأل عمرو بن العاص رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم عن من أحب الناس إليه فقال: عائشة رضي الله عنها(٤٩).

وحينما تقلب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تجد أنه حينما غادر مكة مكرها خاطبها بعاطفة جياشة خطاب المحب المكرم المعظم فقال وهو على راحلته بالحزورة: "والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت"(٥٠).

وبينما هو مقبل على المدينة ينظر إلى جبل أحد قال لمن معه من أصحابه مخبراً لهم عما في نفسه تجاه جبل أحد، وعما يحمله هذا الجبل الأصم من محبة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولصحبه الكرام، ففي الحديث الصحيح عن أبي حميد قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وساق الحديث وفيه ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي ومن شاء فليمكث، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال هذه طابة، وهذا أحد وهو جبل يحبنا ونحبه"(٥١).

لكن ألا تدري لماذا تحب هذه البقاع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومن سار على منهجه؟ إن الخبر الإلهي قد أبان عن حقيقة هذا الحب ودوافعه، إن هذه المخلوقات خلق من خلق الله، وهي تحب من يحب خالقها وباريها، فإذا الكون كله متحاب في الله متواد فيه، يحب من يحب الله ويبغض من يبغض الله، وفي الخبر التالي مصداق ذلك فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله إذا أحب

٤٦- سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

٤٧- سورة الروم، الآية: ٢١.

٤٨- **تفسير القرآن العظيم**، ٢/ ٢٧٥.

٤٩- **صحيح البخاري**، (ح ٤١٠٠)، ٤/ ١٥٨٤، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٣٨٤)، ٤/ ١٨٥٦.

٥٠- **المستدرك**، ٣/ ٨، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، **صحيح ابن حبان**، ٩/ ٢٢.

٥١- **صحيح البخاري**، (ح ١٤١١)، ٢/ ٥٣٩، و**صحيح مسلم**، (ح ١٣٩٢)، ٢/ ١٠١١، واللفظ له.

عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض"(٥٢). والآية التالية مصرحة بأن السماء والأرض لا تبكي على موت المجرمين والفجار، ويفهم منها أنها تبكي على افتقاد الطيبين الأخيار قال تعالى بعد ذكر خبر غرق فرعون وقومه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾(٥٣).

في هذا الدين الإلهي العظيم تكامل الحب وغطى كل ما يتعلق بحياة المخلوق فهو يحب ربه وربه يحبه، ويحب الأنبياء والصالحين ويحبونه، ويحب الأرض والسماء وتبكي عليه الأرض والسماء، ويحبه السهل والوعر... حتى إذا تحول الإنسان غير المسلم إلى الإسلام ورأى عظمة هذا الدين ذلّ لمن شرعه، وتفيأ ظلال هذا الحب فدعا إليه، وها هو مجدي مرجان ـ وكان قساً نصرانياً فأسلم ـ لما وجد الحب الحقيقي في هذا الدين ألف كتابه الجميل **محمد نبي الحب** وبعد أن أورد فيه بعض الأحاديث المؤكدة على الحب في هذا الدين قال: "إلى هذه الدرجة يرفع محمد قيمة الحب ومكانته، في حياة الناس وبعد مماتهم، ودلل على أهمية الحب في الدنيا والآخرة، إن الحب عند محمد دليل الإيمان، وشرط دخول الجنة، فالإيمان لا يكتمل إلا بالحب، بل من دون الحب لا يوجد الإيمان، إن الإنسان لا يكون مؤمناً إلا إذا كان محباً، فالحب هو لباب الإيمان وأساسه"(٥٤).

المطلب الرابع: الرحمة:

التعريف: الرحمة الرقة والتعطف و المرحمة مثله، وقد رحِمه بالكسر رحمة و مرحمة أيضاً، و تراحم القوم رحم بعضهم بعضاً، والرحم القرابة، والرحم أيضاً بوزن الجسم مثله(٥٥)، قال الراغب: والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو

٥٢- **صحيح البخاري**، (ح ٣٠٣٧)، ٣/ ١١٧٥، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٦٣٧)، ٤/ ٢٠٣٠، واللفظ له.

٥٣- سورة الدخان، الآية: ٢٩.

٥٤- محمد مجدي مرجان، **محمد نبي الحب**، دار النهضة العربية، مصر، ص ١٠-١١.

٥٥- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ مادة رحم، ١/ ١٠٠.

رحم الله فلاناً، فالرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان[٥٦].

والرحمة في هذا الدين أعم من أن يشار إليها في هذه العجالة؛ وما ذاك إلا لأن الرحمن والرحيم من أسمائه سبحانه وتعالى، والرحمة صفة من صفاته، وهي أيضاً في أصل الرسالة وصفة من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو نبي الرحمة كما سيأتي بعد قليل، والله سبحانه وتعالى أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٥٧]. فالله سبحانه وتعالى أرسله رحمة للخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، ولذا قال إمام المفسرين ابن جرير بعد أن أورد الأقوال في هذه الآية: "وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن بن عباس وهو أن الله أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله"[٥٨].

وبعد بيان أن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت رحمة للعالمين فتعال أخي القارئ لنتفيأ نحن وأنت ظلال هذه الرحمة فنذكر أولاً الأدلة على اتصاف ربنا عز وجل بصفة الرحمة، ثم نذكر رحمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإرشاده أمته إلى أن تتحلى بالرحمة وبيان جوانب ذلك.

فمما يدل على رحمة الله[٥٩] سبحانه وتعالى أن من أسمائه الرحمن والرحيم، ومن صفاته الرحمة قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾[٦٠]. ومن رحمته بخلقه كتب على نفسه الرحمة فقال جل ثناؤه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ

٥٦- **المفردات**، ص ١٩١. وانظر: علي بن محمد الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١/ ٣٦٠.

٥٧- سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

٥٨- **جامع البيان**، ١٧/ ١٠٦.

٥٩- هذا الأمر لا يحتاج إلى دليل؛ لأنه أظهر من أن يستدل عليه، ولكن الحديث عن القيم في هذه الرسالة يستلزم الحديث عن اشتمالها على الرحمة، ولا يمكن الحديث عن الرحمة في هذه الرسالة بمعزل عن الحديث عن رحمته سبحانه وتعالى، نسأله أن يعمنا برحمته، وأيضاً فإنني أعتزم ترجمة هذا البحث ليطلع عليه غير المسلمين فوجب بيان ذلك لكل ما سبق.

٦٠- سورة الكهف، الآية: ٥٩.

ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٦١). وأخبر سبحانه أن رحمته وسعت كل شيء قال تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٦٢). وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن من رحمة الله بخلقه أنه كتب على نفسه أن رحمته سبقت غضبه فعن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي. فهو مكتوب عنده فوق العرش"(٦٣).

بل أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبشر المؤمنين الذين يقعون في الذنوب ويرغبون في الإنابة أن يقول لهم سلام عليكم إن الله كتب على نفسه الرحمة وإن من رحمته أن الله يتوب على من تاب قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(٦٤). قال ابن جرير رحمه الله بعد أن أورد الأقوال في تفسير هذه الآية: "فتأويل الكلام ـ إذ كان الأمر على ما وصفنا ـ وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا فيقرون بذلك قولاً وعملاً، مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم سلام عليكم أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها، كتب ربكم على نفسه الرحمة، يقول قضى ربكم الرحمة بخلقه أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم"(٦٥). ووضح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن الله أرحم بعباده من الأم الرؤوم بولدها، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يرى امرأة ترضع ولدها قال لأصحابه: "أترون هذه طارحة ولدها في النار؟! قلنا: لا وهي تقدر على ألا تطرحه! فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها"(٦٦). وهذه الرحمة التي تتراحم بها الخليقة إنما هي جزء من تسعة وتسعين جزءًا من رحمته سبحانه وتعالى، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

٦١- سورة الأنعام، الآية: ١٢.

٦٢- سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

٦٣- **صحيح البخاري**، (ح ٧١١٥)، ٦/ ٢٧٤٥.

٦٤- سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

٦٥- **جامع البيان**، ٧/ ٢٠٨.

٦٦- **صحيح البخاري**، (ح ٥٦٥٣)، ٥/ ٢٢٣٥.

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار"(٦٧).

أما رحمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فرسالته رحمة كما سبق بيانه، ووصفه ربه بالرحمة فقال جل ثناؤه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٦٨). وهو أرحم الخلق بالخلق فمن ذلك أن كفار قريش حاولوا قتله وبالغوا في أذاه وضيقوا على أصحابه حتى هاجروا فراراً بدينهم ومع ذلك خرج من بينهم لئلا ينزل عليهم العذاب، ونزل إليه ملك الجبال مع جبريل عليهما السلام لعذاب قريش فقال مقالته المشهورة "لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله"(٦٩). وحينما فتح الله عليه مكة وعاد إليها بلا حرب قال لخصومه في يوم انتصاره عليهم "اذهبوا فأنتم الطلقاء"(٧٠). وسيأتي مزيد بيان لرحمته صلى الله عليه وسلم بخصومه في موضوع "احتمال المخالف".

أما رحمته صلى الله عليه وسلم بالطفل الصغير فكان يقبّل الطفل ويضعه في حجره ففي الحديث الصحيح أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً! فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "من لا يرحم لا يرحم"(٧١). بل ربما أدى الصلاة المكتوبة وهو يؤم الناس والطفلة على عاتقه، فعن أبي قتادة قال: "خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها"(٧٢). أما رحمته وعنايته بالمرأة فقد أفردت لها موضوعاً خاصاً في هذا البحث.

ومما نقل عن الفاروق عمر رضي الله عنه أنه استعمل رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ

٦٧- المرجع السابق، (ح ٦١٠٤)، ٥/ ٢٣٧٤.

٦٨- سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

٦٩- المرجع السابق، (ح ٣٠٥٩)، ٣/ ١١٨٠، و**صحيح مسلم**، (ح ١٧٩٥)، ٣/ ١٤٢٠.

٧٠- انظر: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ٩/ ١١٨.

٧١- **صحيح البخاري**، (ح ٥٦٥١)، ٥/ ٢٢٣٥.

٧٢- المرجع السابق، ٥/ ٢٢٣٥.

عهده قال: فأتي عمر رضي الله عنه ببعض ولده فقبله، قال أتقبل هذا؟! ما قبلت ولداً قط. فقال عمر: فأنت بالناس أقل رحمة، هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً(٧٣).

أما رحمته صلى الله عليه وسلم بالطير والحيوان فحدث ولا حرج فعن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة فأخذناهما، قال: فجاءت الحمرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تصيح فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من فجع هذه بفرخيها؟ قال: فقلنا نحن. قال: فردوهما"(٧٤). وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه رضي الله عنهم بالرحمة بالحيوان وينكر عليهم إذا رأى تقصيراً منهم في ذلك. فقد دخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله! فقال: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكى إليّ أنك تجيعه وتدئبه"(٧٥)، وبين النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عظيم الأجر لمن يرحم الحيوان ويحسن إليها، سواء كانت هذه الحيوان مما يملك أم من سائر الحيوانات فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني! فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا يا رسول الله! وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر"(٧٦).

المطلب الخامس: السلام:

التعريف اللغوي: قال ابن منظور: السلام والسلامة البراءة، تسلم منه تبرأ. وقال ابن الأعرابي: السلامة العافية،... وكانت العرب في الجاهلية يحيون بأن يقول أحدهم لصاحبه: أنعم صباحاً وأبيت اللعن، ويقولون: سلام عليكم، فكأنه علامة المسالمة وأنه لا حرب هنالك، ثم جاء الله بالإسلام فقصروا

٧٣- **سنن البيهقي الكبرى**، ٩ / ٤١.

٧٤- **المستدرك على الصحيحين**، ٤/ ٢٦٧، قال الحاكم:هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٧٥- **سنن أبي داود**، ٣/ ٢٣، و**المستدرك**، ٢/ ١٠٩، و**الأحاديث المختارة**، محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، ط ١، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ، ٩/ ١٦٠.

٧٦- **صحيح مسلم**، (ح ٢٢٤٠)، ٤/ ١٧٦١.

على السلام وأمروا بإفشائه، إلى أن قال: وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾(٧٧). معناه تسلماً وبراءة لا خير بيننا وبينكم ولا شر، وقال ابن عرفة قالوا سلاماً أي: قالوا قولا يتسلمون فيه ليس فيه تعد ولا مأثم. قال أبو منصور نتسلم منكم سلاماً ولا نجاهلكم وقيل: قالوا سلاماً أي سداداً من القول وقصداً لا لغو فيه، وقوله قالوا سلاماً قال: أي سلموا سلاماً وقال سلام أي أمري سلام لا أريد غير السلامة(٧٨).

التعريف الشرعي: السلام: هو طلب السلامة من كل مكروه، والسلام من أسمائه تعالى، وحقيقة هذه اللفظة البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب(٧٩). والتسليم مشتق من السلام اسم الله تعالى لسلامته من العيب والنقص، وقيل معناه: أن الله مطلع عليكم فلا تغفلوا، وقيل معناه: اسم السلام عليك؛ إذ كان اسم الله تعالى يذكر على الأعمال توقعاً لاجتماع معاني الخيرات فيه وانتفاء عوارض الفساد عنه، ومنه قيل للجنة دار السلام؛ لأنها دار السلامة من الآفات، وقيل معناه سلمت مني فاجعلني أسلم منك من السلامة بمعنى السلام(٨٠)، وإنما المقصود منه كما قال ابن القيم رحمه الله: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء، فتخبر الذي تسلم عليه أنه في سلام منك، وتدعو له بالسلام وبالسلامة من الآفات(٨١).

ويقول ابن القيم رحمه الله: "وكل أمة لهم تحية من هذا الجنس أو ما أشبهه ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه، وألفاظ خاصة تتميز بها تحية الملك من تحية السوقة، وكل ذلك مقصودهم به الحياة ونعيمها ودوامها، فشرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل الإسلام تحية بينهم "سلام عليكم" وكانت أولى من جميع تحيات الأمم التي منها ما هو محال وكذب نحو قولهم: تعيش ألف سنة، وما هو قاصر المعنى مثل: أنعم صباحاً، ومنها ما لا ينبغي إلا لله مثل: السجود، فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك كله؛ لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدم على كل شيء، ومقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين: بسلامته من الشر، وحصول الخير كله، والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير، وهي الأصل، ولهذا إنما يهتم الإنسان بل كل

٧٧- سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

٧٨- **لسان العرب**، مادة سلم، ١٢/ ٢٩٠

٧٩- **بدائع الفوائد**، ٢/ ١٤٣.

٨٠- **لسان العرب**، مادة سلم١٢/ ٢٩٠ و**النهاية في غريب الأثر**، ٢/ ٣٩٢

٨١- **بدائع الفوائد**، ٢/ ٣٧١.

حيوان بسلامته أولاً ثم غنيمته ثانياً، على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص والضعف، ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة، فتضمنت السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير، فانتظمت الأصلين اللذين لا تتم الحياة إلا بهما، مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له"(٨٢).

ومن هذا اللفظ المتضمن لهذه المعاني أخذ مسمى الإسلام فإنه من هذه المادة لأنه الاستسلام والانقياد لله تعالى، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به(٨٣). فالسلام مبدأ عظيم أمر به الإسلام وحث عليه وتعددت النصوص التي ترشد إليه وتبين ثماره ومنافعه، ويدرك المرء الحاجة إليه أكثر في هذا العصر الذي يصح أن تسميه عصر الحرب لا عصر السلم، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الأزمنة وسماها أيام الهرج أي القتل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل حتى يكثر فيكم المال فيفيض"(٨٤). فصدقت نبوته وأصبحنا نسمع فيه قعقعة السلاح وقرع طبول الحرب أكثر مما نسمع أخبار الخير والعطاء، ونرى الجثث في شوارع المدن أكثر مما نرى واجهات المساجد والمدارس والمصانع، وتصك الآذان صيحات الأطفال واستغاثات النساء أكثر مما نسمع أناشيد الطفولة وترنيمات الأمهات لأطفالهن، ونشم رائحة البارود أكثر مما نشم رائحة العطور، وهب أنك تسير العاشرة ليلاً في أحد شوارع نيويورك أو كركاس أو غيرها من المدن المسكونة بالرعب والخوف، ثم يقابلك رجل لا تستطيع أن تتنبأ بما سيفعل؛ ثم يقول لك السلام عليكم. فما الأمان الذي يحل عليك؟ وما السكينة التي خالطت قلبك؟! وكم تتلفت إلى مأمن وتبحث عن معاذ تعوذ به وتتحرى أذنك عبارة تمنحك الأمن والسلام في كثير من شوارع عواصم العالم اليوم، وتحدث نفسك أنك إن عدت إلى غرفة الفندق أو البيت ولم يعتد عليك لص يسلب مالك، ولم تفاجأ بلغم أو قنبلة موقوتة تقضي على حياتك وآمالك ـ فقد كسبت هذا اليوم ورأيته مغنما، كم أنت بحاجة إلى السلام في عواصم تحمّلك إدارة الفندق كامل المسؤولية إذا

٨٢- المرجع السابق، ٢/ ٣٧٣.

٨٣- شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ٢/ ٣٦٢.

٨٤- **صحيح البخاري**، (ح ٩٨٩)، ١/ ٣٥٠ واللفظ له، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٦٧٢)، ٤/ ٢٠٥٦.

فتحت باب غرفتك لزائر لا تعرفه ... في مثل هذه الأجواء يكون السلام قيمة عالية الأهمية ومبدأً عظيم القدر في حياة الأمم والشعوب، وسبيلاً إلى قيام الحضارات، بل لا تقوم حضارة بغير أمن وسلام؛ ولذا ذكّر الله أهل مكة حينما بعث إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بنعمة الأمن والإطعام فقال عز من قائل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾(٨٥).

من أجل ذلك جاء التوكيد على هذا الأمر المهم في هذا الدين الخاتم؛ من وجوه متعددة منها:

الأول: أن السلام من أسمائه تعالى وهو أولى وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة، فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة؛ بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار(٨٦).

وقال سبحانه وتعالى مخبراً عن نفسه ومعرفا عباده بأسمائه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٨٧). وبين أن المسلمين الذين أسلموا وسلّموا وسلم غيرهم منهم أن مآلهم الجنة دار السلام، وهذا تناسب عجيب بين الفعل وهو السلام، وبين الثمرة وهي دار السلام، قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٨٨).

الثاني: أنه بشّر عباده المؤمنين بأن لقاءهم به سبحانه تكون التحية فيه هي السلام، قال جل ثناؤه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾(٨٩). قال ابن كثير رحمه الله: "الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ تحيتهم أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال الله عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ

٨٥- سورة قريش، الآيات: ١-٤.

٨٦- **إعلام الموقعين**، ٢/ ٣٦٣.

٨٧- سورة الحشر، الآية: ٢٣.

٨٨- سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

٨٩- سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٣- ٤٤.

رَّحِيمٍ ﴾[٩٠][٩١] ففي هذا اليوم المخوف الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويعلم كل إنسان أنه مؤاخذ بذنبه؛ يتنزل السلام والتسليم على أهل الإيمان من الرب الرحيم!! فيا لها من بشرى ما أعظمها؟! ويا له من أمن ما أبرده على القلب.

الثالث: أن السلام من أول مقاصد الرسالة الخاتمة فعن عبدالله بن سلام ـ وهو من أحبار اليهود ـ قال لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم انجفل الناس عليه فكنت فيمن انجفل فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء سمعته يقول: "أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام"[٩٢].

الرابع: أن السلام يعتبر في هذا الدين من خير شعبه وأهم مبادئه فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير؟ قال: "تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"[٩٣]. فانظر كيف قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين عمادي قيام البلدان والأبدان الإطعام والسلام، كما قرن بينهما الله في سورة قريش، وبوب البخاري رحمه الله في **صحيحه** فقال: باب أيّ الإسلام أفضل، وأورد فيه حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله! أي الإسلام أفضل؟ قال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٩٤]. وقال عمار رضي الله عنه: "ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار"[٩٥]. وهذا من عجيب فقه عمار رضي الله عنه حيث ذكر هذه المقومات الثلاث التي من جمعهن فقد جمع الإيمان؛ فإذا أنصف من نفسه فقد أعطى لكل ذي حق حقه، وإذا بذل السلام للعالم فقد سلم منه الخلق وبذل لهم السلام، ثم نوّه إلى أمر إيجابي يحتاج إليه الخلق من كل ذي سعة وبذل ألا وهو الإنفاق من الإقتار، فأعظِم بهذا الدين، وأعظِم بحملته الأوائل كيف فقهوه وطبقوه!

٩٠- سورة يس، الآية: ٥٨.

٩١- **تفسير القرآن العظيم**، ٣/ ٤٩٧.

٩٢- محمد بن عيسى الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت، ٤/ ٦٥٢، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ٢/ ١٠٨٣، البيهقي، **السنن الكبرى**، ٢/ ٥٠٢، **المختارة**، ٩/ ٤٣١، **المستدرك على الصحيحين**، ٣/ ١٤.

٩٣- **صحيح البخاري**، (ح ١٢)، ١/ ١٣، و**صحيح مسلم**، (ح ٣٩)، ١/ ٦٥.

٩٤- **صحيح البخاري**، (ح ١١)، ١/ ١٣، و**صحيح مسلم**، (ح ٤١)، ١/ ٦٥.

٩٥- **صحيح البخاري**، ١/ ١٩.

الخامس: أنه علامة على ائتلاف المجتمع ومحبة بعضهم لبعض، فالإسلام لم يكن ديناً غرضه أن يعبد الإنسان ربه في المسجد وينساه في سائر مرافق الحياة، كالمسيحية التي تعلم أتباعها أن يتعبدوا في الكنيسة يوم الأحد ليعيثوا في الأرض فساداً بقية الأسبوع، يقول عبد الأحد داود وكان قسا نصرانيا ثم أسلم مخبرا عما كان يجده في ديانته النصرانية: "فإنه عندما يخرج من الكنيسة حيث شارك في تناول العشاء الرباني الذي يسمونه القربان المقدس يصبح متعصبا وانعزاليا، لدرجة أنه يفضل لقاء كلب على لقاء مسلم أو يهودي؛ لأن هذين لا يؤمنان بالثالوث وبالعشاء الرباني، إنني أعرف ذلك وكنت أحمل نفس العواطف عندما كنت قسا كاثوليكيا"(٩٦).

لكن الإسلام دين يهدف إلى تحقيق العبودية التامة لرب العالمين في كل زمان ومكان، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"(٩٧). قال ابن العربي: "فيه إن من فوائد إفشاء السلام حصول المحبة بين المتسالمين؛ وكان ذلك لما فيه من ائتلاف الكلمة لتعم المصلحة بوقوع المعاونة على إقامة شرائع الدين، وهي كلمة إذا سمعت أخلصت القلب الواعي لها عن النفور إلى الإقبال على قائلها"(٩٨).

وقال الإمام النووي رحمه الله: "وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين، وفى هذه الأحاديث جمل من العلم ففيها: الحثّ على إطعام الطعام والجود والاعتناء بنفع المسلمين، والكف عما يؤذيهم بقول أو فعل مباشرة أو سبب، والإمساك عن احتقارهم، وفيها الحثّ على تآلف قلوب المسلمين، واجتماع كلمتهم وتوادهم واستجلاب ما يحصل ذلك قال القاضي رحمه الله: والألفة إحدى فرائض الدين وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام، قال: وفيه بذل السلام لمن عرفت ولمن لم تعرف، وإخلاص العمل فيه لله تعالى لا مصانعة ولا ملقاً، وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع، إلى أن قال: وفيها أي ألفاظ هذه الأحاديث لطيفة أخرى وهي أنها تتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه، ولا يخص أصحابه وأحبابه به"(٩٩).

٩٦- عبد الأحد داود، **محمد في الكتاب المقدس**، ترجمة فهمي شما، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، ط ١، ١٤٠٥هـ، ص١٥٢.

٩٧- **صحيح مسلم**، (ح ٥٤)، ١/ ٧٤.

٩٨- **فتح الباري**، ١١/ ١٨، ١٩، بتصرف يسير.

٩٩- **شرح النووي** على **صحيح مسلم**، دار إحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، ٢/ ١٠، ١١، ٣٦.

السادس: افتقاده قد يوجب الريبة، لما كان السلام عنواناً للسلامة وإعلاناً للمسالمة وطلباً للبراءة، كان افتقاده قد يوجب الريبة؛ ولذا حرم الإسلام التقاطع والتهاجر، وأنه لا يحل منه إلا الثلاث التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وأرشد إلى ترك ذلك، وبين أن خيرهما الذي يبدأ بالسلام؛ إذ أنه عنوان للمسالمة وترك القطعية، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام"(١٠٠).

ولذا لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام وقالوا له سلاماً، وقدم لهم الطعام ولم يطعموه أوجس منهم خيفة كما أخبر الله عنهم فقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾(١٠١). قال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "لأن التسليم لا يكاد يكون إلا بين أهل السلم دون الأعداء، فإذا ذكر تسليم من قوم على قوم ورد الآخرين عليهم دل ذلك على مسالمة بعضهم بعضاً. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، يقول تعالى ذكره فلما رأى إبراهيم أيديهم لا تصل إلى العجل الذي أتاهم به، والطعام الذي قدم إليهم؛ نكرهم وذلك أنه لما قدم طعامه عليه السلام إليهم فيما ذكر كفوا عن أكله، لأنهم لم يكونوا ممن يأكله، وكان إمساكهم عن أكله عند إبراهيم وهم ضيفانه مستنكراً، ولم تكن بينهم معرفة، وراعه أمرهم وأوجس في نفسه منهم خيفة"(١٠٢). ففهم إبراهيم عليه السلام أن السلام عنوان مسالمة، فلما قدم الطعام ولم يأكلوا أوجس منهم خيفة، فعلى هذا يكون ترك السلام موجباً للريبة.

المطلب السادس: الأخلاق:

تعريفه: الأخلاق جمع خُلق، وقال الجوهري: والخلق: السجية. يقال: خالص المؤمن، وخالق الفاجر. وفلان يتخلق بغير خلقه، أي يتكلفه. قال الشاعر:

إن التخلق يأتي دونه الخلق(١٠٣)

وقال الزبيدي في تاجه: الخُلُقُ بالضَّمِّ وبضَمَّتَيْنِ: السجية وهو ما خلق عليه من الطبع ومنه

١٠٠- متفق عليه، **صحيح البخاري**، (ح ٥٨٨٣)، ٥/ ٢٣٠٢، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٥٦٠)، ٤/ ١٩٨٤.

١٠١- سورة هود، الآيتان: ٦٩-٧٠.

١٠٢- **جامع البيان**، ١٢/ ٦٩-٧١.

١٠٣- **الصحاح في اللغة**، مادة خلق.

حديث عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن": أي كان متمسكاً به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف. وقال ابن الأعرابي: الخلق: المروءة، والخلق: الدين وفي التنزيل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١٠٤)، والجمع أخلاق لا يكسر على غير ذلك وفي الحديث: "ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق" وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة. أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة؛ ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع، ثم أورد أحاديث ثم قال: وكذلك جاءت في ذم سوء الخلق أيضاً أحاديث كثيرة(١٠٥).

فالأخلاق إذاً هي الصورة الإنسانية الباطنة التي تعطي للصورة الظاهرة حسنها أو قبحها، وبما أن الأخلاق بهذه المكانة فقد عني بها الشرع الحنيف عناية فائقة، فبين أصول الأخلاق المحمودة، وبين أصول الأخلاق المذمومة، وبين عواقب التخلق بكل واحد منها، وبما أن النصوص التي تناولت هذا الباب كثيرة جداً فلن أتناول النصوص التي حضت على نوع محمود من الخلق، أو حذرت من نوع مذموم منها، وسأكتفي بذكر النصوص الدالة على حسن الخلق أو النصوص التي تحذر من سيئ الأخلاق.

وقبل الخوض في ذلك أقول:إن الأخلاق في الإسلام مبدأ وعقيدة لا تتغير ولا تتبدل سواء كان المقابل صديقاً أو عدواً، قريباً أم بعيداً، سواء كان المسلم منتصراً أو مهزوماً، وكثير من الأمم تكون أخلاقها تبعاً لمصالحها فإن كانت للفرد أو الدولة مصلحة في الصدق صدقوا، وإن كان الكذب سيحقق مكسباً ومغنماً كان هو المطية، وبئس المطية الكذب، ومن نظر في كثير من السياسات العالمية اليوم وجد أنها سياسات غير أخلاقية وإنما هي سياسات مصالح، لا سياسات مبادئ؛ بينما الرسالة الخاتمة كان الجانب الخلقي من أبرز مقوماتها، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(١٠٦). ولم يكن هذا المبدأ شعارا فقط بل دعا إليه صلى الله عليه وسلم، فهذا أبو ذر رضي الله عنه قبل إسلامه لما سمع بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله! فرجع فقال:

١٠٤- سورة القلم، الآية: ٤.

١٠٥- الزَّبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادة "خلق".

١٠٦- **المسند**، ٢/ ٣٨١، **مصنف ابن أبي شيبة**، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ٦/ ٣٢٤، **سنن البيهقي**، ١٠/ ١٩١.

"رأيته يأمر بمكارم الأخلاق"(١٠٧). ومن هذه المكارم التي أمر بها قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١٠٨). وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١٠٩). وتأمل هذا البعد الاجتماعي والأخلاقي في قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"(١١٠).

وهذا الخلق الذي دعا إليه صلى الله عليه وسلم كان هو أول من امتثله وتخلق به؛ ولذا وصفته زوجته رضي الله عنها لما سألها سعد بن هشام بن عامر عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين! أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: "كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾"(١١١). فكان يأتمر بأمر القرآن، وينتهي عن مناهيه، وينزجر عن زواجره، ويصدق بأخباره، ويخضع وُيخضع من تحت يده لأحكامه، فكانت حياته صلى الله عليه وسلم تطبيقاً حياً لهذه المبادئ التي نادى بها ودعا إليها، وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً"(١١٢).

ولم يكن الخلق الذي تخلق به ودعا إليه خاصاً بالمقربين منه أو بأتباعه على دينه أو بأبناء جنسه العرب؛ وإنما كان عاماً لكل الناس البر والفاجر، والمؤمن والكافر القريب والبعيد، ولذا لما أرسل معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن أوصاه بهذه الوصية الجامعة فقال: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها،

١٠٧- **صحيح البخاري**، ٥/ ٢٢٤٤.

١٠٨- سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٩-٢٠٠.

١٠٩- سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

١١٠- **صحيح مسلم**، (ح ٢٥٦٤)، ٤/ ١٩٨٦.

١١١- **المسند**، ٦/ ٩١.

١١٢- متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو، **صحيح البخاري**، (ح ٣٣٦٦)، ٣ / ١٣٠٥، و**صحيح مسلم**، (ح٢٣٢١)، ٤/ ١٨١٠.

وخالق الناس بخلق حسن"[١١٣]. فهذه الوصية تعتبر منهجاً شاملاً للحياة، فقوله: "اتق الله حيثما كنت"، يرسم للمسلم علاقته مع ربه في كل أحواله، وقوله: "وأتبع السيئة الحسنة تمحها"، يبين للمرء كيف يتعامل مع هذه النفس التي بين جنبيه وكيف يصلح أخطاءها ويقيم مسارها، وقوله: "وخالق الناس بخلق حسن"، يشرع للمؤمن المنهج الرباني في العلاقات البشرية وأنه يجب أن يسيطر عليها الخلق الحسن، لا أن تكون خاضعة لأهواء النفوس ومصالح البشر. وقال سبحانه وتعالى مؤكداً هذا الشمول في التعامل مع البشر: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[١١٤]. وهذا الشمول في التعامل مع كل البشر يتطلب شمولاً أيضاً في جنس الخلق الذي يجب التعامل معهم من خلاله، فيجب أن يتعامل المرء مع كل الناس بحسن الخلق، ولمعرفة ما هو حسن الخلق نجد أن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"[١١٥]. ففسر النبي صلى الله عليه وسلم البر بحسن الخلق، وقال السدي: البر اسم جامع للخير كله[١١٦]. فمن أراد الخير كله فعليه بحسن الخلق، مع جميع الخلق، وبين الإمام الشافعي رحمه الله أركان المروءة التي بها تستقيم أخلاق الإنسان فقال: "المروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك"[١١٧].

والتعامل مع الخلق كل الخلق بخلق حسن قد لا تستطيعه كل النفوس؛ ولذا رتّب الله عليه أعظم الأجر وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن أكمل الناس إيماناً أحسنهم أخلاقاً فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وليس منا من لا يألف ولا يؤلف"[١١٨].

١١٣- **المسند**، ٥/ ٢٢٨، و**سنن الترمذي**، ٤/ ٣٥٥، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، و**المستدرك على الصحيحين**، ١/ ١٢١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ ٢٠/ ١٤٤.

١١٤- سورة البقرة، الآية: ٨٣.

١١٥- **صحيح مسلم**، (ح ٢٥٥٣)، ٤/ ١٩٨٠.

١١٦- عياض بن موسى اليحصبي، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، المكتبة العتيقة، ١/ ٨٤.

١١٧- البيهقي، **السنن الكبرى**، ١٠/ ١٩٥.

١١٨- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، ٤/ ٣٥٧.

كما بشّر أهل الأخلاق الحسنة بأن هذا الخلق هو أثقل أعمالهم يوم القيامة في ميزان حسناتهم فعن أبي الدرداء قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة"(١١٩). وعظّم النبي صلى الله عليه وسلم شأن حسن الخلق حتى قال لزوجه أم سلمة: "ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة"(١٢٠). فإذا ذهب بخيري الدنيا والآخرة فماذا بقي لسائر الأعمال؟! ولكن إن كل عمل طيب مبارك فيه قيام بحق الله أو قيام بحقوق العباد فهو مبني على حسن الخلق.

وليست هذه الفضائل والأجور هي ما يترتب على حسن الخلق فقط بل بين النبي صلى الله عليه وسلم أن الأقرب منه مجلساً يوم القيامة هو من حسن خلقه، فعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مجلس: "ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة؟! ثلاث مرات يقولها، قلنا: بلى يا رسول الله! قال: أحسنكم أخلاقاً"(١٢١).

ولن يستطيع الباحث أن يلم بكل آية أو حديث تناولت خلقاً محموداً فحثت عليه، أو ذكرت خلقاً ذميماً فحذرت منه، والناظر في هذه النصوص يجد أنها ركزت على أصول الأخلاق الحميدة: كالحياء والكرم والصدق والشجاعة والعفاف والعدل والحلم، وبينت أصول الأخلاق الخبيثة: كالكذب والبخل والحسد والكبر والنفاق والغش والنميمة والغيبة، ولن يتسع البحث لذكر دليل لكل خلق من هذه الأخلاق؛ ولكن لعل فيما ذكرته كفاية؛ إذ فيه بيان مكانة الخلق في هذا الدين، وبيان مكانة صاحبه يوم القيامة، وفضل المتخلق به في الدنيا والآخرة.

المطلب السابع: النظافة:

تعريف النظافة: قال في **القاموس**: "النظافة النقاوة، نظف، ككرم فهو نظيف ونظفه تنظيفاً فتنظف"(١٢٢). وقال ابن منظور: "النظافة النقاوة، النظافة مصدر التنظيف، والفعل اللازم منه نظف الشيء بالضم نظافة فهو نظيف حسن ونظفه ينظفه تنظيفاً أي نقاه"(١٢٣).

والنظافة في هذا الدين العظيم شاملة لجميع جوانب الحياة فهي نظافة للقلب والقالب، نظافة في

١١٩- **سنن الترمذي**، ٤/ ٣٦٣، **وسنن أبي داود**، ٤/ ٢٥٣.

١٢٠- **المعجم الأوسط**، ٣/ ٢٧٩.

١٢١- **صحيح ابن حبان**، ٢ / ٢٣٥ .

١٢٢- **القاموس**، مادة "نظف".

١٢٣- **لسان العرب**، ج ٩، ص ٣٣٦.

القول والعمل، نظافة في المطعم والملبس والمشرب، نظافة للحي والشارع، نظافة حسية ومعنوية، وأعظم ما أمر الله عباده أن يتنظفوا منه الشرك قال جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾(١٢٤).

وفي هذه الآيات، وهي من أول ما نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، أمره الله سبحانه وتعالى أن يطهر ثيابه من النجاسات، وأن يطهر قلبه من الشرك، وأن يهجر كل ما يفضي إليه من سبب أو وسيلة، وأن يخلص عمله لله رب العالمين. قال ابن جرير رحمه الله: "وقوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معنى ذلك لا تلبس ثيابك على معصية ولا على غدرة، ويرويه عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق عكرمة قال: أتاه رجل وأنا جالس فقال: أرأيت قول الله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وقال آخرون: بل معنى ذلك لا تلبس ثيابك من مكسب غير طيب. وقال آخرون بل معنى ذلك أصلح عملك"(١٢٥). فأنت ترى أقوال المفسرين في معنى هذه الآيات أنها تتضمن الأمر بتنظيف وتنقية الظاهر والباطن. وقال ابن حجر رحمه الله: "﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي عظم ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ أي من النجاسة، وقيل: الثياب النفس وتطهيرها اجتناب النقائص، والرجز هنا الأوثان"(١٢٦). وقال المباركفوري: "﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي عظّم ربك عما يقوله عبدة الأوثان ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ أي من النجاسات والمستقذرات؛ وذلك أن المشركين لم يكونوا يحترزون عنها، فأُمِرَ صلى الله عليه وسلم بصون ثيابه من النجاسات وغيرها خلافاً للمشركين، ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ أي اترك الأوثان ولا تقربها"(١٢٧).

والأمر بالنظافة والتطهر من الشرك لا يكفي بل يجب على المسلم أن يتطهر من جميع الذنوب وآثارها؛ ولذا شرع الله الصلوات الخمس والوضوء عند كل صلاة لتتحقق هذه الطهارة اليومية من الذنوب، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من

١٢٤- سورة المدثر، الآيات: ١-٥.

١٢٥- **جامع البيان**، ٢٩/ ١٤٤- ١٤٦.

١٢٦- **فتح الباري**، ١/ ٢٨.

١٢٧- **تحفة الأحوذي**، ٩/ ١٧٢.

يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء؛ حتى يخرج نقياً من الذنوب"(١٢٨). وكما يشرع للصلاة الوضوء فمعلوم أنه يسبقه الاستنجاء؛ ولذا أثنى الله على من بالغ في ذلك فقال جل ثناؤه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾(١٢٩). قال ابن جرير رحمه الله: "يحبون أن ينظفوا مقاعدهم بالماء إذا أتوا الغائط"(١٣٠).

وحذر من التهاون بالتنزه عن البول وبين أن عامة عذاب القبر منه فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: "إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير! أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة"(١٣١).

كما شرع أيضاً صلاة الجمعة للنظافة الأسبوعية شرع لها الاغتسال والطيب والادّهان قبلها فعن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر، ثم ادهن أو مس من طيب، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كتب له، ثم إذا خرج الإمام أنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى"(١٣٢). فمن تقرب إلى الله بهذه العبادة العظيمة جعله الله نقيا من الذنوب والآثام ـ ما لم يغش كبيرة ـ من الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فسمع وأنصت غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام"(١٣٣).

وشرع صيام رمضان للطهارة السنوية فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه"(١٣٤).

كما شرع العمرة والحج مرة واحدة ليتحقق للمسلم طهارة تامة من الذنوب ويرجع من حجه

١٢٨- **صحيح مسلم**، (ح ٢٤٤)، ١/ ٢٥٥.

١٢٩- سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

١٣٠- **جامع البيان**، ١١/ ٢٩.

١٣١- **صحيح البخاري**، (ح ٢١٥)، ١/ ٨٨، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٩٢)، ١/ ٢٤٠.

١٣٢- **صحيح البخاري**، (ح ٨٦٨)،١/ ٣٠٨، و**صحيح مسلم**، ٨٥٠، ٢/ ٥٨٢.

١٣٣- **المسند المستخرج على صحيح مسلم**، ١/ ٢٩٦.

١٣٤- **صحيح البخاري**، (ح ١٨٠٢)، ٢/ ٦٧٢، و**صحيح مسلم**، ٧٦٠، ١/ ٥٢٣.

وعمرته إذا أحسنهما كيوم ولدته أمه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"(١٣٥). وقال صلى الله عليه وسلم: "من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"(١٣٦).

ومع أن الشارع الحكيم شرع هذه العبادات وغيرها لطهارة ونظافة الباطن من الآثام والذنوب فقد شرع عبادات أخرى تتعلق بنظافة الجسد من الخارج؛ حتى تتوافق نظافة الباطن والظاهر فمن ذلك الوضوء لكل صلاة، والاغتسال الواجب من الحدث الأكبر، والاغتسال ليوم الجمعة، ومن ذلك العناية بالمظهر كقص الأظافر وما شابهه من سنن الفطرة؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "الفطرة خمس، أو خمس من الفطرة: الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب"(١٣٧).

وقال مراد هوفمان سفير ألمانيا السابق في المغرب بعد أن استعرض موجبات الطهارة والنظافة في الإسلام قال: "ويمكنني أن أقول بصدق: إنني انزعجت مراراً من رائحة أناس يجلسون بجانبي في حفلات الأوبرا الغنائية في باريس أو في مركز لنكولن في نيويورك، أو في المسرح الوطني في ميونخ؛ إلا أنني لم أنزعج من رائحة كريهة على الإطلاق في مسجد من مساجد المسلمين. ثم طرح السؤال التالي: هل يمكن أن يعني هذا أن المسلمين هم الأنظف؟!"(١٣٨).

وأمر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يحرص المسلم على طيب كلامه وفعله ومأكله فقال صلى الله عليه وسلم: "طيبوا أفواهكم بالسواك فإنها طرق القرآن"(١٣٩) قال أبو السعادات ابن الجزري: "أي صونوها عن اللغو والفحش والغيبة والنميمة والكذب وأمثالها، وعن أكل الحرام والقاذورات، والحثّ على تطهيرها من النجاسات"(١٤٠).

وهذا الأمر بالعناية بنظافة المظهر والمخبر لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى أن يكون تنبيها

١٣٥- متفق عليه من حديث أبي هريرة، **صحيح البخاري**، (ح ١٦٨٣)، ٢/ ٦٢٩، و**صحيح مسلم**، ١٣٤٩، ٢/ ٩٨٣.

١٣٦- **صحيح البخاري**، (ح ١٤٤٩)، ٢/ ٥٥٣.

١٣٧- **صحيح البخاري**، (ح ٥٥٥٠)، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٥٧)، ١/ ٢٢١.

١٣٨- مراد هوفمان، **الرحلة إلى الإسلام: يوميات دبلوماسي ألماني**، ترجمة: محمد سعيد دباس، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ص ١٢٣.

١٣٩- قال عنه الألباني: صحيح، انظر: **صحيح وضعيف الجامع الصغير**، رقم ٣٩٣٩.

١٤٠- أبو السعادات محمد بن المبارك الجزري، **النهاية في غريب الأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزواوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ط ١، ١٣٩٩هـ، ٥/ ٧٦-٧٧.

للمسلم أن يختار العبارة التي ليس فيها تشاؤم ولا دلالة على خبيث قولي أو فعلي إذا أراد أن يصف ضعف حالته النفسية، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "قال لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي"(١٤١). قال ابن أبي جمرة: "ويؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء، والعدول إلى ما لا قبح فيه، والخبث واللقس وإن كان المعنى المراد يتأدى بكل منهما لكن لفظ الخبث قبيح ويجمع أموراً زائدة على المراد، بخلاف اللقس فإنه يختص بامتلاء المعدة، قال: وفيه أن المرء يطلب الخير حتى بالفأل الحسن، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما، ويدفع الشر عن نفسه مهما أمكن، ويقطع الوصلة بينه وبين أهل الشر حتى في الألفاظ المشتركة، قال ويلتحق بهذا أن الضعيف إذا سئل عن حاله لا يقول: لست بطيب، بل يقول: ضعيف، ولا يخرج نفسه من الطيبين فيلحقها بالخبيثين"(١٤٢).

وفوق ذلك انتقل بالفرد المسلم من الاهتمام بنظافته الشخصية إلى الأمر بالمحافظة على النظافة العامة فقد أرشد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى العناية بنظافة الحي فقال: "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود؛ فنظفوا ـ أراه قال ـ: أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود"(١٤٣). قال الطيبي: "إذا تقرر ذلك فطيبوا كل ما أمكن تطييبه، ونظفوا كل ما سهل لكم تنظيفه، حتى أفنية الدار وهي متسع أمام الدار، وهو كناية عن نهاية الكرم والجود، فإن ساحة الدار إذا كانت واسعة نظيفة طيبة كانت أدعى بجلب الضيفان وتناوب الواردين والصادرين"(١٤٤).

ألم تر أن النظافة في هذا الدين تعتبر منظومة متكاملة فهي نظافة القلب والقالب نظافة الروح والبدن نظافة المسكن والملبس نظافة الحي والشارع، نظافة الثوب والفرش والأثاث، نظافة يومية وأخرى أسبوعية ... فسبحان من شرع هذا الدين الذي تضمن كل ما فيه صلاح البشر وصلاح الحياة والأحياء.

فرغ الباحث من الحديث عن القيم الاجتماعية ولم ينته ما تضمنته النصوص في هذا الباب، ولكن حسب الباحث أنه ذكر إشارات، وأومأ إلى أصول في هذا الباب توصل إلى ما سواها، وترشد إلى مثيلاتها، وبعد ذلك ينتقل البحث إلى وجهة أخرى.

****

١٤١- **صحيح البخاري**، (ح ٥٨٢٦)، ٥/ ٢٢٨٦، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٢٥٠)، ٤/ ١٧٦٥.

١٤٢- **فتح الباري**، ١٠/ ٥٦٤.

١٤٣- **سنن الترمذي**، ٥/ ١١١، وقال عنه الألباني: حديث حسن.

١٤٤- **تحفة الأحوذي**، ٨/ ٦٧-٦٨.